دور عبيد الله المهدي في أنشاء الدولة الفاطمية في المغرب العربي ومصر

م.م. حميد حمد صالح

مديرية تربية الانبار / قسم تربية الرمادي

Hameedhamad818@yahoo.com

الملخص:

جاء هذا البحث ليسلط الضوء على حقبة تاريخية مهمة في تاريخ الأمة الاسلامية، وتاريخها السياسي، وتأتي أهمية هذه الحقبة كونها بداية تدخل الافكار السياسية، في استخدام الفكر الديني لتذليل الصعاب، والوصول الى المأرب المطلوبة، ولهذا اختار الباحث هذا الموضوع " **دور عبيد الله المهدي في أنشاء الدولة الفاطمية في المغرب العربي ومصر** " ، ولتحيق الهدف المرجو من البحث أستخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي، كونه المنهج المناسب للموضوع، وقد قسم الباحث البحث الى بابين ومجموعة مطالب، حيث جاء في المطلب الأول أهمية البحث، ثم مشكلة البحث ، وبعد ذلك ذكر المحددات الخاصة بالبحث، وهي مجموعة من الضوابط التي على الباحث التقيد بها اما المطلب الثاني جاء بعنوان كان عن عبيد الله المهدي ونسبة، والمطلب الثالث نسبة الى فاطمة الزهراء " عليها السلام" ، وعلاقة عبيد الله المهدي بالعباسيين كان عنوانا للمطلب الرابع، اما الهجوم على مصر واحتلالها ثم امتداد النفوذ الفاطمي الى المغرب العربي تناوله البحث في أخر مواضيع الباب الاول .

وجاء الباب الثاني بثلاث مطالب هي " أهم مميزات الدعوة الفاطمية في عهد الامام عبيد الله المهدي، و وأهم المبادئ الأساسية في عهد الامام عبيد الله، وكذلك أهم العوامل التي ساعدت عبيد الله على النجاح " .

وفي نهاية البحث الخاتمة وأهم ما توصل الباحث من نتائج وما ذكر من توصيات، التي كانت من أبرزها التأكيد على دراسة التاريخ الإسلامي دراسة نقدية لا عاطفية تبجيلية لتحصل الفائدة المرجو ، وكون التاريخ مدرسة الماضي ودروس للحاضر.

الكلمات المفتاحية: (عبيد الله المهدي، الدولة الفاطمية).

The role of Ubaid Allah al-Mahdi in the establishment of the Fatimid state in the Maghreb and Egypt

millimeter. Hamid Hamad Saleh
Anbar Education Directorate / Ramadi Education Department
Hameedhamad818@yahoo.com

Abstracts:

This research came to shed light on an important historical era in the history of the Islamic nation, and its political history. The establishment of the Fatimid state in the Arab Maghreb and Egypt." In order to achieve the desired goal of the research, the researcher used the analytical descriptive approach, as it is the appropriate approach for the subject. Regarding the research, which is a set of controls that the researcher must abide by. As for the second requirement, it was titled "It was about Ubaid Allah al-Mahdi and his lineage," and the third requirement was related to Fatimah al-Zahra "peace be upon her." And Ubaidullah al-Mahdi's relationship with the Abbasids was the title of the fourth requirement. Then the extension of the Fatimid influence to the Arab Maghreb, which the research dealt with in the last topics of the first chapter.

The second chapter came with three demands: "The most important characteristics of the Fatimid call during the era of Imam Ubaid Allah al-Mahdi, and the most important basic principles during the era of Imam Ubaid Allah, as well as the most important factors that helped Ubaid Allah succeed".

At the end of the research, the conclusion and the most important findings of the researcher in terms of results and the recommendations mentioned, the most prominent of which was the emphasis on the study of Islamic history, a critical, not sentimental, reverential study in order to obtain the desired benefit, and the fact that history is a school for the past and lessons for the present.

Keywords: (Ubayd Allah al-Mahdi, the Fatimid state).

الباب الاول : المطلب الاول

أهمية البحث :

دراسة التاريخ اساس في معرفة المستقبل، وكل الأمم المحترمة تعتز بتاريخها، وتقرئه وتعلمة الى ابنائها بشكل علمي، ولكن هذه النظرة للماضي يجب أن تكون نقدية لا تبجيلية، فالدراسة النقدية: دراسة كاشفة، بعيدة عن العاطفة وميولها المحيرة، تقف على نقاط القوة، وترصد نقاط الضعف والانهيار، واسباب كل منهما، وتحيط بجميع الابعاد التاريخية والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، المكونة للأحداث التاريخية .

اما القراءة التبجيلية : وهي القراءة التي تقدس الماضي وتحاول ترحيله الى الحاضر، متناسية جميع الابعاد المحطة به، وهذه الدراسة غير علمية، بل عاطفية، لا تستخدم المنهج العلمي في جمع المعلومات حول موضوع أو حدث معين، وقد استخدمها العرب وجعلوها أسلوبهم في الحياة، مما جعل الماضي لديهم أكثر ضبابية وغموض، وجعلهم يحاكمون العالم وفق احداث الماضي، مما جعلهم يرفضون ويستهجنون كل محاولة علمية للنظر في أغوار الماضي وتحليلية، وهذه الفكرة المغلوطة عن الماضي جعل العرب يستهلكون سنين طول في ابحاث لا طائل منها، وجهود كبيرة وجبارة في اتجاه غير صحيح .

ولهذا على الباحثين العلميين في المجال التاريخ أن يقوموا بأدوارهم في رفع الغبار عن الماضي، ومعرفة أهم أحداثه باستخدام اساليب علمية منهجية، مبتعدين عن الميول العاطفية، والاحكام المسبقة، والمحاكمات العقلية، واستخدام الشك والتبصر في كل حدث وتناوله من جوانبه المختلفة، وأبعاده العديدة .

وهذا مما دفع الباحث في البحث في تاريخ دولة اسلامية، حدث في تكوينها ونشؤها لغط كبير، وأحدثت تغيرات تاريخية الى يومنا هذا يشوبها الغموض وعدم الفهم، الدولة الفاطمية في مصر والمغرب العربي .

ولكبر الموضوع قام الباحث بدراسة تاريخ قائد فاطمي كان له دور كبير في المغرب العربي، ومن خلال معرفة احول هذا القائد وما حدث معه يمكننا تسليط الضوء على حقبة زمنية مهمة في التاريخ العربي الاسلامي .

مشكلة البحث:

الاحداث التاريخية التي لم تفسر بشكل علمي منهجي تحليلي ، تبقى مصدر خلافي بين ابناء الأمة الواحدة، وخاصة نحن العرب المولعين بالماضي وأحداثه، بل تقديسه ، فجل المشاكل الدينية والقومية بين العرب المسلمين هي من

نتاج الماضي لا المستقبل، وعند التدقيق بتلك الاحداث نجدها غامضه، غير مفسرة علميا، بل نجد جل تفسيراتها مذهبية قومية، ومن أمثلة هذه الاحداث نجد في التاريخ الاسلامي العديد من هذه الأحداث والتي من بينها "الدولة الفاطمية " مالها وما عليها .

هل كانت تتبع الشريعة الاسلامية، كيف كان اسلوب الحكم فيها ، اساب تكوينها ، اسباب انهيارها، أهم قادتها واسلوبهم مع الشعب المصري، كيف تحولت مصر من دولة شيعية الى دولة سنية ، وكل تلك الأحداث يجب أعادة النظر فيها لنخرج بفؤاد كبيرة عن تاريخنا الحافل .

ولهذا قام الباحث بدراسة هذا الموضوع " **دور عبيد الله المهدي في المغرب العربي** " دراسة تاريخية تحليلية .

محددات البحث :

١- **الحدود الزمانية (** الفصل الدراسي الثاني للعام الدراسي _ ٢٠٢٢- ٢٠٢٣ م) .

٢- **الحدود الموضوعية (** الامام عبيد الله المهدي في بلاد المغرب من ٢٩٦- ٣٢٢ هـ) .

المطلب الثاني : الامام عبيد الله المهدي اسمه ونسبة

اسمه ونسبة

هو "عبيد الله ابن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق" (

١) ، مؤسس الدولة الفاطمية، وهي الدولة الشيعية الوحيدة التي حكمت بقاع كبيرة من أرض المسلمين على غرار " الدولة الأموية، والدولة العباسية" ، وقد ولد في مدينة الكوفة وتوفي في تونس، وقد ذكر اكثر المؤرخين أن تاريخ ميلاده هو عام ٨٧٣ هـ ، اما تاريخ الوفاة فكان الثالث من أبريل عام ٩٣٤ م .

وقد اختلف المؤرخون والعلماء في نسب عبيد الله، فهناك جماعة منهم يرون صحة نسبة الى اسماعيل بن جعفر، وجماعة اخرى ينكرون هذا الأمر، فيرون أن عبيد الله من سلالة ميمون القداح، أو من سلالة موسى الكاظم .

وبهذا يرى الباحث أن المؤيدين نسب عبيد الله الى علي وفاطمة ثلاث طوائف : الاولى : تقول انه امام من ألائمة الاثنا عشرية أو الموسوية، وطائفة اخرى ترجعه الى اسماعيل ابن جعفر، وهم الإسماعيلية، وجماعة من الطائفة السنية يرون صحة نسبة الى اسماعيل، اما المؤيدون نسب عبيد الله لميمون القداح، فهم قله من الاسماعيلية .

مكانته عند الشيعة :يعتبر المهدي عند الشيعة الاسماعيلية هو الامام الحادي عشر عندهم والذي عرف عندهم باسم " عبيد الله بن الحسين الزكي عبد الله " ، والذي يرجع نسبة الى الامام علي والسيدة فاطمة الزهراء عليهم السلام (٢) .

المطلب الثالث : نسبة الى علي وفاطمة (عليهم السلام)

كتب في بطون الكتب الشيعية احاديث كثيرة جدا عن الامام المهدي المنتظر، وقد آمن بذلك الاسماعيلية وكذلك الاثنا عشرية وكذلك كثير من السنيين .

ولذلك يرون أن عبيد الله امام من نسل الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبعضهم قال هو المهدي المنتظر نفسة وهو المقصود بتلك الأحاديث، وأن نسبة لا غبار علية .

علما أن هناك طائفة كبيرة من السنة وعلمائهم يثبتون صحة نسب عبيد الله الى علي وفاطمة . ومن هؤلاء ابن الأثير وأبن خلدون والمقريزي، الذي قال : " أن الكاذب لا يملك البلاد ولا يمكن له في الأرض "(٣) ، مستشهدا بحدث الى الامام الكاظم عن ظهور المهدي في المغرب، وانتشار الدعوة الاسماعيلية شرقا وغربا.

وكذلك استدل المقريزي على صحة نسب عبيد الله من اتجاه وميول بعض الأمراء المسلمين نحوه، امثال نصر بن أحمد الساماني أمير خرسان، ومرداويج بن زيار الديلمي، ويوسف ابن أبي الساج أمير الري، مما لا يترك مجالا للشك في أن نسب عبيد الله الى علي وفاطمة وهذا أمر مفرغ منه في ذاك الوقت .

ويذهب الباحث الى هذا الرأي بصحة نسب عبيد الله الى علي وفاطمة، ولكن ليس هناك ما يثبت بالضبط من أي اتجاه كانوا .

المطلب الرابع : علاقة عبيد الله بالعباسيين

كان عبيد الله كعامة الإسماعيلية، يعتقد أن العباسيين غير جديرين بالزعامة الروحية والسياسية، لانهم لم يغتصبوا الحق من أهلة فقط، بل بهذا فعلهم أصبحوا خارجين عن الدين، معارضين لأوامر الله بتنصيب أمام يقود الأمة بنظرهم، حتى قال أحدهم في مخاطبة الخليفة المقتدر : " لأنت أمير الفاسقين أولى بك من أمير المؤمنين "([٤]) .

وكانت الضرورة الملحة لها دور كبير في تشكيل العلاقة مع العباسيين، حيث كانت افريقيا وما زالت بلاد فقيرة، لا تستطيع أن تمد دولة تريد أن تكون زعيمة للعالم الإسلامي، من المال والرجال، كذلك كان هناك فاصل بينها وبين العالم المتحضر آنذاك العراق ومصر وفارس، الصحراء الغربية، ولهذا رأى عبيد الله ان القيروان أو ما تسمى المهدية، لا تصلح لتكون قاعدة حربية له، ولهذا كان التصادم بين الفرقين لا بد منه، لتصادم المصالح بينهما.

عبيد الله يريد انتزاع الزعامة من العباسيين، والعباسيين دفاعا عن ملك عظيم، وكان عبيد الله يحمل ذكاء ملفت للنظر، حيث استغل خروج الدولة الفاطمية من حرب وصراع عنيف شنه الكتاميون بزعامة الداعي أبي عبد الله الشيعي، وبعد هذه التجربة تعود الجيش على القتال، بعد فترة طويلة من القتال (خمس عشر سنة)، وصل بهم الحال لا يستطيعون الصبر بدون قتال، ولهذا كان من الحنكة العسكرية، ومعرفة احوال جيشة النفسية، فأستغل هذه الروح القوية في دعم دعوته ومذهبة، في سبيل قيام دولة عظيمة كان يحلم بها، ليرث الدولة العباسية، فكان فكره هذا يشبه ما قام به ابي بكر الصديق " رضى الله عنه" في اشغال المسلمين في الفتوحات تجنبا للقتال الداخلي([٥]) .

وبعد قتل أبي عبيد الله الشيعي " سنة ٢٩٨ هـ " والهزة الكبيرة التي حدثت في أركان الدولة الفاطمية الناشئة حديثا، فعمل على ايجاد حل يخرجه من هذا المطب الكبير، ولهذا عمد على مقاتلة الدولة العباسية، وحاولته الاستيلاء على مصر واتخاذها بعد ذلك قاعدة جديدة لبسط نفوذه على بلاد العراق وغيرها من البلدان .

المطلب الخامس : الهجوم على مصر

كانت بلاد المغرب اكثر البلدان صلاحية لنشر المذهب الإسماعيلي، ولكنها لم تكن مناسبة لا قامه دولة قوية، ولهذا كانت مصر الهدف الانسب لذلك الأمر، ولكن على الرغم من محاولات عبيد الله لفتح مصر منيت بالفشل، ولكن خلفاءه قد ورثوا هذا الميل القوي للحصول على هذه البلاد، حتى توجت هذه المحاولات بالنجاح سنة " ٣٥٨ هـ " ، ولا يخفى عن المتتبع للدولة الاسماعيلية أنه كان لهم اتباع في بلاد الشام واليمن تدين لهم بالولاء والطاعة، وبعدما توجت

محاولاتهم بالناح في مصر وجدوا فيها كل عون، ولا يستبعد أن يكون الفاطميون قد رموا وراء احتلال الفسطاط حاضرة مصر، ثم دمشق حاضرة الشام، والمدينة المنورة ومكة حاضرتي العالم الاسلامي من الناحية الدينية الى امتداد نفوذهم الى بلاد العراق، ومن يحتل هذه المدن يسهل عليه احتلال بغداد واستغلال مركزها العظيم في المنطقة([٦]) .

ولم يكن السيطرة على مصر بالأمر الهين المتاح، فقد استغرق هذا الأمر من الإسماعيلية ثلاث حملات، وتضحيات كبيرة، حيث كادت هذه الحملات بالفشل، الا ان سوء الأوضاع الداخلية في مصر، ووجود اتباع قد سهلوا عليهم هذا الأمر بالدعاية المنظمة، وتقديم المعلومات عن تواجد الجيوش، واحوالها مما أدى الى دخول مصر، وبداية دولة قوية قد رسمت لها تاريخ في صفات الأمة الاسلامية .

المطلب السادس : امتداد نفوذ الدولة الفاطمية الى المغرب العربي

بعد سيطرة الفاطميين على افريقيا " تونس " خطوة الى زيادة وبسط نفوذهم الى الشرق والغرب، اما الشرق لم تفلح حملاتهم في الاستيلاء على مصر في عهد عبيد الله، وأما من جهة الغرب، كان الفاطميون يعملون على بسط قبضتهم على جميع هذه البلاد، بحيث لا يوجد فاصل بين دولتهم والمحيط الأطلسي، ولهذا حصل تصادم بيم عبيد الله المهدي ودولة الأدارسة، وقد ساهم بشكل كبير جدا في أزاله هذه الدولة من الوجود، وايضا قد اصطدم مع الأمويين في الأندلس، وعمل على اخضاع القبال في المغرب العربي، ولم يستطع رغم كل المحاولات من إخضاع جميع البلاد تحت حكمة، ولكنة مهد الطريق الى المعز لدين الله الذي بدورة استطاع من توحيد جميع البلاد المغرب تحت لوائه، وقد تمم ما قد بدئه عبيد الله المهدي قبل نصف قرن([٧]) .

لقد مرت محولات الفاطميون لا اخضاع بلاد المغرب في أدوار ومراحل مهمة نوجزها بالتالي:

المرحلة الاولى : كانت على يد عبيد الله الشيعي واستمرت هذه المرحلة لضم كل من " بلاد المغرب – الأوسط والأقصى – وجزيرة صقلية " وتكللت هذه المرحلة بنجاح غير تام، حتى كادت كل تلك المدن أن تقع بيد الفاطميون .

المرحلة الثانية : بدأت هذه المرحلة من عام " ٢٩٧ – ٣٠١ هـ " بمجيء عبيد الله المهدي وتولية العرش، وتنتهي بمحاولة فتح مصر الاولى، وقد عمل بها المهدي، منذ جلوسه على العرش في ربيع الثاني عام ٢٩٧ هـ، أن يكون السيد المطلق النفوذ، وواجه السنيون بلقب المهدي، وارسل العمال الى الامصار المختلفة، وقد اختارهم من الرجال الذين يثق بهم، من تلاميذ مدرسة أبي عبد الله الشيعي، ممن تتلمذوا على هذا الفكر الذي بدورة يتماشى مع افكار عبيد الله التوسعية(٨) .

المرحلة الثالثة :

تعتبر هذه المرحلة بداية مرحلة تنيم بلاد المغرب العربي، " ٣٠٢ – ٣٠٧ هـ " تبدأ بحملة عبيد الله المهدي الأولى على مصر، وتنتهي بحملته الثانية عليها، ملاحظ أن سياسة عبيد الله قد واجهت كثير من المتاعب والمطبات، وما زاد معاناته مقتل أبي عبد الله الشيعي، الى وقع العديد من الاضطرابات والمشاكل، في نظام الحكم في المغرب العربي، حيث قتل ونكل بأصحابه، وقد تتبع عبيد الله قتلته وأخذ القصاص منهم، وبعد قتل "حباسه وأخيه عروبة"، قتلت أبي عبد الله الشيعي، حدثت مشاكل كبيرة، فامتنعت برقة على عبيد الله المهدي، ولم تسلم ألا بعد مضي سنة ونصف (٩) .

وفي هذا ذكر ابن خلدون : " وانتفض لذلك أخوه عروبة بالمغرب، واجتمع اليه خلق كثير، من كتابه والبربر، وسرح اليهم المهدي مولاه غالب، فهزمهم وقتل عروبة وبني عمه في أمم لا تحصى "(١٠) .

وفي خلاصة هذه المرحلة نقول أن المهدي اتخذ من المغرب العربي مركزا رئيسا يوجه منه قوته نحو المغرب الأقصى، وأخذ يحتك بالأدارسة والأمويين ايضا.

المرحلة الرابعة:

بدأت هذه المرحلة بتنظيم الحملة الثانية على مصر، وتنتهي بوفاة عبيد الله المهدي " ٣٠٧ – ٣٢٢ هـ " . وفي هذه المرحلة كان الصراع بين الفاطميين والأدارسة، وكذلك مع حلفاء الخليفة الناصر الأموي من المغاربة، ويهر أن عبيد الله المهدي حين علم أخفاقة في مصر، عمل على بذل كل الجهود في المغرب، بعد ذلك عمل على فتح جبهه جديدة مع الأدارسة، الذي أنتهى بعزلهم في أقليم الريف، ومن ثم قضى على ملكهم في المغرب الأقصى (١١) .

يرى الباحث أن ذكاء وحنكة المهدي كان لهى دور كبير في سيطرة المهدي على المغرب العربي، وتخاذه قاعدة، وليس مركز للدولة الفتية " الدولة الفاطمية " لكونه على علم بوضع تلك البلاد ومدى تجذر افكارهم فيها، ولهذا عمد على فتح مصر، واصراره عليها بعد سيطرته على المغرب العربي، وبهذا لم يفتح على نفسة أكثر من جبه في وقت واحد .

الباب الثاني :

المطلب الاول : أهم مميزات الدعوة الفاطمية في عهد عبيد الله المهدي

امتازت الدعوة الإسماعيلية في عهد عبيد الله بمميزات كثيرة، كان منها أنها مرت بطورين تاريخيين كان الاول يسمى بطور " الاستتار "، اما الأخر يسمى بطور " الظهور " .

كان عبيد الله في الطور الاول أمام ولكن مستور، وفي الطور الثاني أصبح اماما ظاهرا، وبهذا كانت تعليماته الى ولاته تنسجم مع كل طور، حيث كان يدعوهم في فترة الاستتار الى أمور تنسجم مع مشارب الناس، والتأويل المختلف والجديد مما يثير شغف الناس، حيث أن الناس تميل الى ما يثير فضولها، وفي الفترة الأخرى اختلف الأمر عنده، حيث بدأ ببناء دعائم دولته مستغلا ضعف الفرق الشيعية، والمقدار الكبير من الظلم وسلب الحريات الذي يعيشونه في تلكم الفترة، وهذا ورغم المصاعب التي تعرض لها الأ انه تجاوزها بفضل ما يحمله من صفات شخصية، مثل الهدوء، والصبر الكبير، والثقة العالية بالنفس، وصفات القيادة البارزة فيه .

ومن أشهر مميزات الدعوة الإسماعيلية :

١- استتار عبيد الله :

من أهم أدوار الدولة الاسماعيلية : وقد تطورت به الأحوال في الدور الاول حتى اصبح نائب الأمام، أو كما يقول الاسماعيلية " حجاب، أو امام، وحجة " واصبح هو الامام المستور تارة أخرى، وفي كل الاحوال كان هو من يرأس الجماعة التي تعمل بالخفاء، وتدعو الناس الى أتباع الأمام المستور، وقد تسلم منصب الامام في أواخر القرن الثالث الهجري([١٢]) .

وقد تطورت دعوته وذاع صيتها في فارس، وخرسان، والعراق، اما تركيزها فكان في سواد الكوفة، وكان أهم قادته في الكوفة هما " حمدان قرمط وعبدان " وبعد ذلك على يد القائد " زكرويه وأبنائه "، ومن ثم انتقلت شرارتها الى اليمن والبحرين والقطيف، حتى اعتقد البعض ان الدولة الفاطمية سوف تنطلق من اليمن، اما في بلاد المغرب فكانت الأمور أكثر قوه وصلابة حيث كان الى أبي عبد الله الشيعي، دور كبير جدا، الذي استطاع أن يوجه ضربات موجعه الى الدولة الأغلبية الضعيفة في ذلك الوقت وأثبت قوته الى المجتمع المغربي(١٣) .

٢- التعمق في السرية :

لقد أحاطت دعوة عبيد الله سرية كبيرة جدا، حتى وصل الأمر الى التباس الأمر على المؤرخين، ولهذا لم يقفوا على القائمين على هذه الدعوة، هل هم من الدعاة أم هم من الأئمة الحقيقيين من أبناء اسماعيل، وقد استطاع عبيد الله وكذلك من كان قبلة من بناء مجتمعات سرية تقودها التقية والتخفي، وهذا من أبرز مصادر قوة الدعوة، حيث حمتهم من الاختراق، والتشتت، وكذلك بنت لهم في عقول الناس هالة كبيرة جدا، واطلقت العنان الى مخيلة الناس بإضافة أمور اعجازية وغير واقعية على الدعوة هذه (١٤) .

٣- التحمس الحربي الكبير :

لا يقل تأثير التحمس الحربي الكبير عن أثر السرية في أنجاح الدعوة، وقد كان من سياسة عبيد الله الاستعانة بسيوف أنصاره في تحقيق مقاصده، والتي تتلخص بتكوين دولة اسماعلية، وكذلك القضاء على الدولة العباسية.

وقد تحقق هذا حيث أظهر الاسماعلية شجاعة كبيرة جدا، وقد استطاعوا من هزيمة العباسيين مرات عديدة، على يد القائد الاسماعيلي " أبو سعيد الجنابي " من هزيمتهم مرات عديده، وكذلك استطاعوا من هزيمة جيوش الطولونيين والعباسيين على يد جماعة " زكرويه بن مهرويه " وكذلك القوا الرعب في قلوب أهل الشام وباديتها، وفي شمال العراق الغربي، وبهذا نال القرامطة نجاح كبير بفضل الدعاية المنظمة والمدروسة، ومعرفة كيفية التلاعب المنظم في مشاعر الناس، وبفضل هذه الحماسة الحربية استطاع أبو عبد الله أن يحقق للدعوة الاسماعيلية غرضيها الرئيسين : حيث أقام دولة الفاطميين، بعد أن اباد العباسيين (١٥) .

٤- الاعتماد على نظرية المهدي المنتظر :

عمل دعاة الاسماعيلية على رواج هذه النظرية في انحاء البلاد المراد التوغل فيها، متخذين ميل وحب الناس الى ال البيت عليهم السلام، وكذلك تذمر الناس من الفساد المتفشي في المجتمع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وسيلة لجذب الاشياع والمريدين، ولهذا ادعوا أنهم يمهدون الى عصر جديد هو عصر دولة " دولة الله " وأن المنتظر عليه السلام قريب الخروج، لينقذ الناس مما هم فيه، ولهذا دخل كثير من الناس الى جماعة عبيد الله، بحثا عن أمل ضائع، وارجاع الى قيمتهم المسلوبة، حيث في لحضه دخولهم يحملون لقب " جند الله " وهذا يزرع فيهم السعادة والقيمة الاجتماعية المفقودة، وفي حالة التضحية بالنفس تكون الجائزة أكبر وأعظم الشهادة في سبيل الله (١٦) .

٥- ظهور عبيد الله " ٢٩٦ – ٣٢٢ هـ " :

من أهم مصادر القوة في الدعوة الاسماعيلية هي ظهور عبيد الله وتوليه العرش، ونهاية دور الاستتار، وكذلك ظهوره بدأ عصر الدين الساسي لديهم، حيث بدأ بتكوين النظم التي سوف تكون لاحقا حاكمة في المشهد السياسي الفاطمي، فبعد ما كان الأئمة يمنحون نوابهم ودعاتهم كثير من النفوذ والسلطان، حتى كان شبه مستقلين عنهم، غير عبيد الله هذا الأمر حيث تقلد زمام كل الأمور، حيث كان هو من يملي عليهم، ويحدد من يختار منهم حسب الولاء والطاعة له، وبهذا أخذ ينظم الامور داخليا، وكذلك النظام الخارجي للدعوة، وبدأ يخطط الى توسعات اكبر، من اتجاهات مختلفة، وكما نعلم أن أي دولة اذ لم تبادر بالتوسع والنفوذ سوف تكون في مرمى أطماع الدول الأخرى، وهذا كان مبدأ عمل عليه عبيد الله في سياسته الخارجية(١٧) .

ويرى الباحث أن عبيد الله كان على دراية كبيرة بالتاريخ، مستفيدا منه، متجاوز لا خطأ غيره ممن سبقوه بالدعوة، يعمل على نقاط ضعف العدو، صبورا على تحقيق ذلك، يحمل كاريزما قيادية مؤثرة على اتباعه، ويحمل من الشجاعة جعلته يقدم على فتح البلاد والتوسع السريع .

٦- علاقة الدعوة بالاتباع :

من أهم مميزات الدعوة في ذلك الدور علاقتها السرية بالمستجيبين . نعم القد تغير مركز الدعوة الفاطمية وأنصارها بقيام الدولة الفاطمية ؛ فلم تعد هذه الدولة ترضى ببقاء بعض مبادى الإسماعيلية الغالية ، وعرضها على العامة ، حتى لا يثوروا عليها ، ويعيدوها سنية كما كانت . ولذلك حتم على القائمين بأمر هذه الدولة أن يتظاهروا في عهد عبيد الله المهدى للناس بغير ما هم عليه ، وأن يحكموا ، في الوقت نفسه ، الاتصال السري مع أشياعهم وأنصارهم

الإسماعيلية، حتى لا يتطرق الضعف والوهن إلى المذهب الإسماعيلي بينهم . ولذلك نرى عبيد الله يتصل سرا "بأبي سعيد الجنابي " ويأمره بإعلان الحرب على العباسيين في جنوب العراق ، في الوقت الذي تغزو فيه جيوش الدولة الفاطمية مصر ؛ ويتصل هو سرا بأنصاره القرامطة ليعلنوا الثورة على ولى عهد أبي سعيد ، وينادوا بأحقية أخيه أبى طاهر ، وكان مواليا لعبيد الله فيقره هذا على عرش القرامطة ، ويتصل به سرا ليقابل جيوشه في مصر سنة ٣٠٧ هـ.

كما امتازت الدعوة الإسماعيلية في عهد عبيد الله المهدى ، اتخاذ حاضرة الدولة مستقرا الرياسة الدعوة ، أو بعبارة أخرى ، اتخاذ هذه الحاضرة دار هجرة للإسماعيلية : فأصبحت المهدية ، التي حلت محل سلمية، خاصة بمدارس الدعوة التى تغذى طائفة الإسماعيلية في كافة أنحاء العالم بالآراء والدعاة الذين مرنوا على العمل ، وأصبحت دار الهجرة الأولى جماعات الإسماعيلية، وليس معنى ذلك أن أنصار الإسماعيلية كانوا يقلدون الدولة فى اتخاذ حواضر بلادهم دور هجرة ، فإن ابن حوشب ، وكبار قرامطة السواد بعد حمدان قرمط ، وأبا طاهر القرمطة ، كانوا لا يزالون يعتمدون على إقامة دور هجرة يرى إليها الإسماعيلية إذا حزبهم الأمر ، وينشرون منها آراءهم وجيوشهم. ولكن هذه الدور لم تسكن فى حواضر بلادهم. فهذا أبو طاهر الجنابي ينشى . المؤمنة ، لتكون دار هجرة ، بالقرب من مدينة الأحساء ، ويظل ابن حوشب في دار هجرته بعدن لاعة النشر الدعوة منها . أما المهدى عبيد الله فيترك دار هجرة الإسماعيلية بفج الأخيار بجبل كتامة ، ويحيل حاضرته إلى دار هجرة إسماعيلية ، تبث مبادتها في هذا الوقت من القصور الملكية، والمساجد ، ومن مدارس الدعوة نفسها ([١٨]) .

٧- التعاملات المالية :

وقد طرأ على الدعوة الإسماعيلية تطور آخر في الناحية المالية ، فبعد أن كانت الأموال في دور الشتر من تبرعات محسني الإسماعيلية، كما فعل" دندان " الذي تبرع لعبيد الله القداح بمليون دينار ، و من الضرائب الوقتية التي فرضها الدعاة على المستجيبين عند أخذ العهد عليهم ، ومن من ضرائب منظمة فرضها كبار الدعاة على الأتباع ، كما فعل حمدان قرمط وأبو سعيد الجنابي ، اللذان كان لنظامهما المالي البديع أثره في ة القرامطة ردحا طويلا من الزمن، أصبحت الدعوة الإسماعيلية في ور المهدى تأتى من الجزية، ومما يدفعه المستجيبون بعد سماع مجالس وهى المحاضرات التي كان يلقيها كبار الدعاة في عقائد المذهب الإسماعيلي . ور نظام هذه المجالس تطورا مدهشا في عهد الفاطميين بمصر ،أضف إلى أشياع المهدى كانوا يرسلون إليه خمس أموالهم ، وهو ما يعرف "بخمس "أو "خمس صاحب الأمان" ،ولابد أن تكون الدولة الفاطمية قد وقفت الأوقاف للأنفاق على الدعوة ، حتى لا

يتطرق إليها الضعف والانحلال حدثت تغييرات شاملة في تنظيم الدعوة وشئونها ؛ ولكن هذه الدعوة تعمل الصالح الأئمة المستورين والظاهرين. ولا غرو فقد كان للجهود الهائلة الت في تنظيم الدعاية للمذهب الإسماعيلي في دور التكوين ، وهو دور الستر، دور الظهور، أثره في بقاء. جماعة الإسماعيلية ، سواء أكانوا من البهرة أم من لتقوية الدولة ([١٩]) .

المطلب الثاني : أهم مبادئ الاسماعيلية في عهد الامام عبيد الله المهدي

كانت الإمامة السلاح الذي تسلح به العلويون ، منذ فجر تاريخ الشيعة ، المقاومة الأمويين أولا ، والعباسيين ثانيا . وقد استمر مبدأ الإمامة على قوته ، كما رأينا ، بين الاثنا عشرية والإسماعيلية، وقد ابتدع الإسماعيلية نظريات كثيرة للإمامة ، ترمى في مجموعها إلى تقديس شخص الإمام الإسماعيلي ، مستورا كان ام ظاهرا .

ومن أهم مبادئ الاسماعيلية هي :

١- مبدأ الامامة في عهد عبيد الله المهدي

هذا المبدأ هو الركيزة الاساسية للمذهب الاسماعيلي، حيث وازنو ما بين الرسالة والأمامة ، وبعثوا علاقة إحداهما بالأخرى، كما بحثوا في تعيين الإمام ، وحتموا أن يكون ذلك التعيين بالنص ؛ ثم تناولوا أشخاص الأئمة من الناحية العلمية ، فذهبوا إلى أنهم مصدر المعرفة دون سواهم . ولم يكتفوا بذلك ، بل نادوا بعصمة الأئمة واستتارهم وظهورهم، كما بحثوا الاستقرار والاستيداع الإمامين . وفرقوا بين الإمام المستقر والإمام المستودع ، إلى غير ذلك من النظريات المرتبطة بهذا المبدأ الأساسي ، وهو مبدأ الإمامة ([٢٠]) .

٢- عصمة الأمام عبيد الله

ليس من شك في أن القول بعصمة الإمام أمر معترف به من جميع الإسماعيلية منذ فجر تاريخهم ؛ إنهم يردون على من يقول : إن إسماعيل بن جعفر الصادق شرب الخمر ، بأنه لا جناح عليه ، وأنه فصل ذلك لحكمة لا يدربها أحد . ولذلك كان من الواجب ألا يعترض إنسان على فعل الأئمة. ويقرر الإسماعيلية فيما بينهم أن من يولد إماما لا يمكنه أن يقترف الجريمة ،، وأن شرب الخمر غير محرم على الأئمة، وأن هؤلاء ليسوا مجبرين على الصوم أو الصلاة أو الحج ، أو غير ذلك ، لأنهم من الخاصة، وأن تكاليف الشريعة مقصورة على العامة وحدهم ، وأنه لا تنطبق أوامر الشرائع الظاهرة على عالم الحقيقة الباطنة المطلقة ، التي ينتمي إلها هؤلاء الأئمة ،. ويرى الإسماعيلية

، فوق ذلك، أن الأئمة قادرون على فسخ أوامر الشرائع السابقة ، وغلا بعضهم في ذلك فقالوا : إن الإمام معصوم حتما على حين لا يعصم غيره حتى الأنبياء أنفسهم) . الحق أن عصمة الأئمة عند الفاطميين، وبخاصة في عهد عبيد الله ، يعتقد الإسماعيلية أن أسرار الشرائع وبواطنها وقف على الأئمة وحدهم، وأنه لا يمكن معرفة هذه الأسرار إلا عن طريقهم أنفسهم ، أو عن طريق أنصارهم من الدعاة. وقد استغل دعاة الأئمة المستورين في هذا للترويج من خلال هذه النظرية في تثبيت نفوذهم ، بدعوى أنهم نواب الأئمة ولا غرو فقد كان نواب الأئمة من بيت القداح ، وعلى رأسهم عبيد الله ، ينادون بالتعليم من الإمام المستور، أو نوابه ، حتى يستغلوا ذلك لمصلحتهم ، وينالهم من تقديس الأتباع لهم ما يناله الأئمة أنفسهم . ومن ثم يرون أن كل زمان لا بد فيه من إمام معصوم، يرجع إليه فيما يتهم من أمور الدين .

٣- عبيد الله وإمامة الاستيداع :

ينفرد جماعة الإسماعيلية بنظرية جديدة من نظريات الإمامة ، تلك هي نظرية الإمام المستودع، وعلى الرغم من أنناقد تعرضنا بأن نظرية الاستقرار والاستيداع نظرية حديثة، لم تدخل في المذهب الإسماعيلي إلا في العصور المتأخرة ؛ لأن هذا القول ينقضه مؤلفات "جعفر بن منصور اليمني" الذي عاصر المهدى . والقائم والمنصور ثم المعز، وجعفر الحاجب الذي شاهد حوادث فرار عبيد الله المهدى، وتكلم عليها في أسباب، كما ينقضه غير هذين من المؤلفين.

و نستطيع أن نزد على الأستاذ إيقانو حين ينفى نظرية الاستيداع في عهد عبيد الله المهدى، بأن عبيد الله لو صح أنه من سلاله القداح لما أمكن نقل الإمامة إليه . لأنه من غير سلالة على ، وما رأينا أجنبيا عن هذه الأسرة يستطيع أن ينال شرف الإمامة ، بأنه ليس من الضروري عند الإسماعيلية أن يكون الشخص ابنا حقيقيا لآخر حين يقال فلان بن فلان ولأن الأب قد يكون أبا روحانيا أو أبا جسمانيا . وبذلك لا يبعد أن يكون عبيد الله الابن الروحاني للأمام الحسين بن أحمد بن عبد الله ابن محمد بن إسماعيل، وبالتالي الأب الروحي للقائم بأمر الله ، الإمام الإسماعيلي المشفر.

أضف إلى هذا ، وهو أن الإسماعيلية يؤولون القرآن تأويلا غير صحيح، في سبيل إقرار نظريتهم في الاستيداع والاستقرار ، فيقولون : إن الامام المستقر ، والإمام المستودع هما المقصودان من قول الله تعالى : " وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين" (سورة هود: ٦). و من قوله تعالى : "

فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون" (سورة الانعام : ٩٨)، وهذا الشرح لا يتفق مع شرح الآيات شرحا معقولا .

ويجب الا يعزب عن أذهاننا أن الإسماعيلية كانوا يقصدون من نظرية الاستيداع نق إمامة معارضهم ؛ ولذلك حاربوا أبناء الحسن بن على بن أبي طالب بهذه النظرية، بدعوى أن الحسن كان إماما مستودعا، وأن أمام الحسين إمام ظاهرا.

٤- عبيد الله والتعيين بالنص

يذهب الإسماعيلية إلى القول بأن عبيد الله وغيره من الأئمة الإسماعيلية ، قد عين كل منهم بالنصر من الإمام السابق . وكان عبيد الله الابن الجسدي للأمام الحسين أم الابن الروحي له ، فقد عين هذا الإمام الحقيق المستقر ، وهو الحسين. ويرى الطوسي أن الامامة أو القدسية ، على حد تعبيره. تنتقل من الأب إلى الابن عن طريق الميلاد الطلب فيكون ذلك بمثابة نص من الأب بتعيين ابنه. وكذلك يرى الإسماعيلية الإمام ، بما أوتيه من معرفة خارقة للعادة ، يستطيع أن يعرف أي أبنائه قد ، أي انتقلت إليه الإمامة. كما يرون أن الإمام لا يخطى في هذه محال من الأحوال ، وإلا لما عد إماما ، مقدمة . وهذا ما جعل الإمامة قوة لا ترد ولا يمكن فسخها ونقضها ([٢١]) .

٥- الستر والظهور .

من نظريات الإسماعيلية المحجبة إليهم ، نظرينا الستر والظهور ، وقد تكلمنا عليهما . ويهمنا هنا أن نقول ، إن عبيد الله من الأئمة الذين شملتهم نظرية الستر والظهور معا ، وإنه نجح في الأمرين نجاحا يذكر ؛ فكان في ستره، وليس هذا كل شيء ، بل استغل عبيد الله ، كغيره من أئمة الاستتار ، فرصة هذا الستر ، وملا الجو إشاعات تؤكد قرب ظهور المهدى المنتظر، فاندفع الناس إلى طائفة الإسماعيلية اندفاعا أدى إلى قيام الدولة الفاطمية والواقع أن الإسماعيلية كانوا ينشرون أن إمامهم حتى يتحين الفرصة للظهور ، وأنه يعمل في الخفاء ، ولو تكاتف الأتباع حوله

، وأقاموا له دولته ، لظهر بينهم ، وملكهم الأرض جميعا. وكان لهذا القول صدى في قلوب الناس ، وخاصة الاثنا عشرية، الذين ملوا انتظار إمامهم ومهديهم وبذلك كان الستر وسيلة استغلال من هذه الناحية ، كما كان الحجج وكبار دعاة الإسماعيلية يستغلون استتار الأئمة ، ويعملون على تقوية نفوذهم باسم هؤلاء ، وهذا ما حدا بعض المؤرخين على القول بأن أبناء القداح ، ومنهم "سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح "، وهو المهدى ، قد استغلوا ذلك ، وأصبح نفوذهم يفوق نفوذ الأئمة أنفسهم. نظرية الستر وبعث الأمل بظهور المهدى ، قد راجت رواجا كبيرا بين الشعوب التي مضطهدها السياسيون ، فولوا وجوههم شطر المنقذ الإسماعيلي وأنصاره، وهناك صورة من صور التخفي ، التي كان الأئمة والحجج والدعاة من الإسماعيلية يركنون إليها، قال الداعي إدريس كان لشدة استتار الإمام، عليه السلام إذا أخذ أحد حدود دينه العهد ، مستجيبين إلى دعوته ، يقول له : وإنك سمعا وطاعة لولى العصر . يفوه باسمه، وإذا ترشح في العلم ، وعلت فيه درجته ، وارتفعت منزلته ، كتب اسم الحجب ، ولا يكشف له اسم إمامه ، ولا بينه بإشارة ولا عبارة في كلامه ، محد قد بلغ الإطلاق، واستحق كشف معرفة إمامه باستعجاب واستحقاق ، لي مدة الأئمة المستورين، حتى طلعت شمس الحق من مغربها ، وأنارت آفاق الدين كل مستمسك بالعروة الوثقى ([٢٢]) .

المطلب الثالث : العوامل التي ساعدت الامام عبيد الله على النجاح

من اهم ما ساعد عبيد الله على النجاح في مسعاه، هو قوة الذكاء، وملكة تحليل الأوضاع الاجتماعية عنده، ومن حسن حظة انه ظهر في عصر كان لانحلال يسود المجتمعات، حيث كانت الدولة العباسية تهيش حالة من التخبط، وسوء الإدارة، وظهور العديد من الولاة غير الكفؤين .

وهناك الكثير من العوامل التي ساعدت عبيد الله ومنها :

١- ضعف العالم الاسلامي :

قد أخذ الضعف يدب في جسم العباسيين منذ أوائل العصر العباسي الثاني . وزيادة نفوذ الأتراك الذين احتلوا أعلى مناصب الدولة ، تتسلطوا على جميع مفاصلها ، وأصبح بأيديهم عزل الخلفاء وتوليتهم ، وأصبح الخليفة العباسي مجرد شكل خارجي وعنوان عام .

وهكذا كان ضعف زعيم العالم الإسلامي ، وهو الخليفة العباسي ، أثره في ازدياد قوة عبد الله المهدى ونجاحه ، لأن أتباعه ضاعفوا جهودهم في الخفاء ليحل محل الخليفة العباسي الضعيف، وقد أدى ضعف الخلافة العباسية إلى قيام الثورات عليها، واشتغالها بإخمادها، وتركهم عبيد الله وأنصاره يعملون في هدوء وتخفي .

وكانت ثورة "صاحب الزنج" من أهم الثورات التي مهدت لنجاح عبيد الله ، الذي استطاع أنصاره من القرامطة وسواهم أن ينتشروا في الوقت الذى كانت فيه نار هذه الثورة مشتعلة ، المذهب الإسماعيلي فى بلاد العراق نفسها ، وفى فارس واليمن، ولما تولى عبيد الله زعامة الإسماعيلية في سنة "٢٨٠ هـ" ، وجد الأمور ممهدة موطأه له . أضف إلى ذلك ضعف الطولونيين في مصر والشام ؛ فقد ساعده ذلك الضعف على أن يغرد بالولاة في سلبية مدة طويلة ، وأن يفلت من أيديهم دون كبير عناء . و من أهم العوامل التي ساعدت على نجاح عبيد الله ، ثورة قرامطة الشمال في الشام وبادينها ثم في العراق ؛ فقد شغلوا العباسيين خمس سنوات ، وأضعفوا الدولة الطولونية ، كطمع فيها العباسيون وأزالوها . وفى وسط ذلك الاضطراب الذي مصر ، كان عبيد الله يأخذ طريقه إلى المغرب لتأسيس دولته فيها . وهكذا لم يكن ضعف العباسيين وحدهم هو السبب في نجاح عبيد الله ، بل كان لضعف أتباعهم الطولونيين أثره في ذلك النجاح . ساد بلاد الشام ومصر

وليس هذا وحده ، بل كان لضعف الدولة "الزيادية "فى اليمن ودولة الأغالبة في المغرب، أثر كبير فيما أصابه عبيد الله المهدى من نجاح؛ فاستطاع دعاته أن يستولوا على بلاد اليمين . وينشروا عقائد المذهب الإسماعيلي بين أهلها ، الذين أصبحوا يؤمنون بنظرية المهدى المنتظر ، كما استطاع "ابن حوشب منصور اليمن" أن يمد ، وهو بسلبية ، بأموال وفيرة ، كانت عونا له في حله وترحاله . أضف إلى ذلك أن ضعف" الأغالبة" في تونس، وسخط البربر عليهم قد أتاحا لأبي عبد الله الشيعي الفرصة للوصول إلى أغراضه، عن طريق نشر الدعوة إلى المذهب الإسماعيلي . والقضاء على الأغالبة في تلك البلاد([٢٣]) .

٢- انتشار مذهب التشيع :

كان التشيع في بلاد المغرب أثر كبير في نجاح عبدالله، حيث كان في العصر العباس الأول ، وبعد التشيع طريقة إلى هذه البلاد على يد الإمام "إدريس بن عبدالله الحسن" العلوي، الذي تمكن من الفرار بعد موقعة فتع في عهد الخليفة "الهادي العباسي "، وقد التف البربر حول الأدارسة في المغرب الأقصى، وكون هؤلاء امبراطورية عرفت بعد ذلك " الأدارسة "، ومن ثم اصبحت بلاد المغرب أرضا صالحة لذلك ، فأرسل الاسماعيلية اليها دعاة جريئين "

ليحرثوها ويكربوها " ، وحدث هذا حينما كان عبيد الله طفلا صغيرا، ولم يكن التشيع أقل انتشارا في بلاد الشام ومصر فقد وجد عبدالله بلاد الشام تزخر بالمتشيعين من الإسماعيلية، اللذين استطاع بفضلهم القرار من سيوف منافسيه، القرامطة وأعداءه العباسيين، وكذلك كان الظهور القرامطة في العراق والشام ثم في البحرين، وانتشار التشيع في بغداد حاضرة العباسيين ، ذلك الأثر نفسه في نجاح عبد الله، الذى اتخذ من دعاته في بغداد عيون على العباسيين.

٣- ضعف الطوائف الشيعية الأخرى:

أن ضعف الطوائف الشيعية الأخرى على طول هذه الفترة، أتاح ذلك الضعف فوز عبد الله ونجاح مذهبة الإسماعيلي، وكان للحنفية اتباع "محمد بن الحنفية" ، والى ابي هاشمية " اتباع أبي هاشم بن محمد الحنفية " شأن كبير جدا في تاريخ الدولة الأموية في أخر عهدها، وكذلك في صدر العصر العباس الاول، الا انه قد ازيل بعد تعرضة الى ضربات متعددة من قبل العباسيين، وقد أخذ الزيدية طريقهم الى البلاد النائية في اليمن، ولكن كانت قوتهم كقوة مسلحة لم يعد لهم وجود، غير بعض الادوار التمهيدية للمذهب الشيعي، اما جماعة " الحسنيين " فقد كانوا صيد سهل للعباسيين، حيث قتل منهم الخليفة العباسي " المنصور " جمع كبير في الشام والعراق .

أما الفريق الذى كان الإسماعيلية يخشون بأنه حقا خطر عليهم ، فهم جماعة "الأمامية الموسوية أو الاثنا عشرية ": فقد كان أأمتهم خطرا على أئمة الإسماعيلية من الناحية السياسية ، لأنهم يدعون الإمامة كما يدعيها أئمة الإسماعيلية ، ولأن السواد الأعظم من الشيعة قد انضموا إليهم. لذلك أصبح هؤلاء الاثنا عشرية خطرا يهدد كيان تلك الفرقة الإسماعيلية الناشئة .. إلا أن العباسيين كفوا الإسماعيلية مكونة مقاومة الاثنا عشرية ، فسجن الرشيد " الامام موسى الكاظم عليه السلام " حتى مات ، وولى المأمون "علي الرضا ابن موسى الكاظم عليه السلام " ولاية عهده ، ثم غدر به فمات مسموما ، وظل أحفاد يلاقون من العباسيين كل أنواع الاضطهاد ، حتى لاقوا حتفهم بين سجين أو هارب أو مقتول . ولم تأت سنة "٢٦٠"هـ حتى ادعى هؤلاء الاثنا عشرية أمام ضغط العباسيين المتزايد اختفاء "محمد بن الحسن العسكري "، مهديهم المنتظر ، فلم يعودوا . قوة يأبه لها الإسماعيلية، خصوصا وأنهم وجدوا في قولهم بنظرية الإمام المنتظر ، فرصة ينددون بها عليهم ، ويفرقون بين إمامهم الإسماعيلي المستور وإمام الاثنا عشرية المنتظر. وكان لهذه الحرب الكلامية أثرها البين في جذب كبار أشياع الاثنا عشرية إلى المذهب الإسماعيلي . وإذا علمنا أن "ابن حوشب "،" وابن فضل "، "وأبا عبد الله الشيعي"، وهم دعاة عبيد الله ، كانوا من الاثنا عشرية ، ظهر لنا أثر الموسوية فيها أحرزه عبيد الله المهدى من نجاح([٢٤]) .

٤- عقيدة المهدي المنتظر وتحمس المسلمين اليها :

كان لا نتشار عقيدة المهدى منذ أوائل حكم الأمويين في المشرق أثر كبير في نجاح الإسماعيلية عامة وعبيد الله المهدى خاصة ، فقد وضعت الأحاديث الكثيرة عن المهدى ، فاستغلها دعاة عبيد الله أحسن استغلال ، حتى إن النجاح الهائل الذي أحرزوه في كافة أنحاء العالم الإسلامي ليرجع إلى هذه النبوءات . فقد رأينا كيف استغل "ابن حوشب" هذه النظرية ، كما استغل اعتقاد اليمنيين في القحطاني المنتظر وجعلهم يؤمنون بأن القحطاني المنتظر هو مهدى الإسماعيلية ، ويعتقدون أنهم جنود المهدى ، وأن دولة "صاحب الزمان " و " إمام الوقت "، ستنبعث من ينهم ، وأنهم سيملكون الأرض قاطبة . وبفضل هذه النظرية اعتقد بعض أن الدولة الإسماعيلية المنشودة ستقوم في اليمن، وأن شمس الإسماعيلية ستشرق من البلاد اليمنية .

وقد لقيت فكرة مهدية عبيد الله نجاحا ملموسا في بلاد المغرب ، لأن دعاة الإسماعيلية الأوائل، وبخاصة "الحلواني" وأبا سفيان، كانوا قد لوحوا للمغاربة بتلك النظرية المهدية فلما جاء أبو عبد الله الشيعي، اعتمد عليها في دعوته اعتمادا كبيرا وأكد لهم قرب ظهور المهدى ينهم ، ووضع لهم من الأحاديث ، أو سرد لهم من الأحاديث الموضوعة في المهدى ما أثار في نفوسهم النزعة الحربية، ليكونوا أول جنود المهدى الذين يجلسونه على العرش. ألم يقل لهم أبو عبد الله : والمهدى يخرج في هذه الأيام ؟ ، ثم ألم يقل لهم : " هذا في الأخيار ، وما سمى إلا بكم . ولقد جاء في الآثار أن المهدى هجرة تنبوء عن الأوطان، ينصره فيه الأخيار من أهل هذا الزمان ، قوم اشتق اسمهم من الكتمان ؛ فأنتم كتامة ، وبخروجكم من هذا الفج سمى فج الأخيار" ؟ ، و إن الشمس تطلع من مغربها ، وإنها لا تنكس راية المهدى عليه السلام حين يقوم بها ؟ . . وكذلك روى الإسماعيلية كثيرا الأحاديث ؛ فما ينسبونه إلى الرسول قوله : و فإذا قام العاشر من ولدى، هاجر الى المغرب العربي، بوني بها مدينة تسمى باسمه .

٥- الاسماعلية وبرامجهم لنشر الدعوة لمذهبهم :

كان من أهم عوامل نجاح الإسماعيلية في نشر دعوتهم ، أنهم نهجوا مناهج بذوا فيها غيرهم من الفرق الشيعية الأخرى؛ فكان الإسماعيلية يبالغون في التخفي في نشر دعوتهم و مبادئ، مذهبهم، على شكل خطوات تتدرج من المعلومات البسيطة ، حتى تصل بالمستجيب إلى مبادى فلسفية عميقة، لا يفهمها إلا القليلون ؛ حتى إن المستجيب كان لا يعرف شيئا عن الدرجات التي على درجته كان همه الوصول إلى درجة أعلى من الدرجة التي وصل إليها ، وأصبح كثير من الإسماعيلية لا يعرفون شيئا عن زملائهم الذين انتظموا في سلك المذهب الإسماعيلي وخفى أمرهم على خصومهم العباسيين ([٢٥]) .

كذلك استغل الإسماعيلية، وعلى رأسهم عبيد الله ، مذهب التقية ؛ فكانوا سنيين أهل السنة ، شيعيين مع الشيعيين ، يهودا مع اليهود ، ومسيحيين مع المسيحيين ،. وبذلك انضم إلى عبيد الله ألوف مؤلفة من المسجلين ، ولم يشعر العباسيون إلا وقد حقق الإسماعيلية أغراضهم بإقامة دولة إسماعيلية خالصة كما برع الإسماعيلية منذ نشأتهم في تنظيم دعوتهم تنظيما رائع، تظاهروا بالتقشف والورع، وبالبلاغة والتضلع في العلم . وخصصوا لكل منهم مبادى يلقنها المستجيبين. ان لنظام التخصص هذا أثره في تكوين جماعة من العلماء الدعاة الذين يتقنون ية مذهبية خاصة، ويستطيعون أن يمثلوها في أذهان سامعهم من المستجيبين . وكان دعاة عبد الله المنتشرون في كافة أنحاء المملكة الإسلامية، أشبه بجواسيس ينقلون إلى اليه أسرار الدولة العباسية وأخبار ولاتها ، ويحذرونه الخطر الذي قد يحدق به بدعوته ودولته . وقد اعتمد عبيد الله على دعاته المقيمين وعلى دعاته السيارة . نادا تاما في وقت فراره من سلمية إلى بلاد المغرب : واستطاع بفضل هؤلاء أن نب الأخطار التي كانت تحيق به. كما آمن الناس بفضلهم بمهدية عبيد الله ، فهب اسماعيلية في البحرين واليمن وبلاد المغرب ، يذودون عن مذهبه بسلاحهم ، حتى مواليه دولة قوية العماد تربع على عرشها، كان لنظام أخذ العهود على المدعوين، أثر كبير في جذبهم إلى المذهب الإسماعيلي رؤسائه، كما أن القيود ، التي كانت تربطهم بهذا المذهب برباط وثيق لا ينفصم حمل المستجيبين يتركون معتقداتهم السابقة ويلتفون حول رئيس دعوتهم الجديدة ، نقل أثرا في هذه السبيل، وكان لنظام أخذ السهود على المدعوين، أثر كبير في جذبهم إلى المذهب الإسماعيلي رؤساءه ، كما أن القيود ، التي كانت تربطهم بهذا المذهب برباط وثيق لا ينقصم تجعل المستجيبين يتركون معتقداتهم السابقة ويلتفون حول رئيس دعوتهم الجديدة، وليس من شك في أن نظام الدعوة الإسماعيلية نظام يقوم على الإخاء والمودة ، يربط الفرد بالمجموع بوشائج قوية ، بحيث يرى هذا الفرد أن حياته في تماسك. جماعي، ولذلك ترى الإسماعيلية مرتبطا بعضهم ببعض ارتباطا يثير الدهش ، ترى جماعتهم تتكون من أفراد مختلفي المشارب والنزعات . ومع ذلك امتازوا بالحب والإخاء ، والتفاني في سبيل النهوض بمذهبهم والدفاع عن رئيسهم خليفتهم، فهذا الفيلسوف السنى يدافع عن مذهبه ورئيسه بقلبه ولسانه ، وهذا الداعي المحارب ، كأنى "عبد الله الشيعي" وابن حوشب ، يزيلان الدول ويثليان المصاعب ([٢٦]) .

كان عبيد الله المهدى من الرجال الذين لا يجود بهم النهر إلا نادرا . فقد استطلاع ، بفضل ما أوتيه من قوة الشخصية، وما جبل عليه من الصفات العالية . أن يحقق ما عقده عليه الإسماعيلية من آمال بعيدة ، في توطيد دعائم المذهب الإسماعيلي في كثير من أرجاء العالم الإسلامي ، كما استطاع أن يقلق بال الدولة العباسية ويثير مخاوفها ، ويقضى على دولة الأغالبة التي اعتمد عليها العباسيون منذ أيام هارون الرشيد في الوقوف في وجه

الأدارسة ، ورد هجماتهم نحو الشرق ، ويقيم في النهاية دولة مهيبة الجانب ، استطاعت أن تقتطع خيرة بلاد الدولة العباسية في المغرب ومصر ، وفى الشام وفلسطين والحجاز واليمن وغيرها، كما عولت على مد نفوذها إلى بغداد حاضرة الدولة العباسية في ذلك الحين . كل ذلك كان راجعا إلى الصفات التي تحلى بها عبيد الله المهدى، والتي كان لها أثر بعيد فيما أحرزه من نجاح(٢٧) .

الخاتمة وأهم النتائج :

يخبرنا التاريخ أن الأمام " عبيد الله المهدى " من الرجال الذين لا يجود بهم النهر إلا نادرا ، فقد استطلاع ، بفضل ما أوتيه من قوة الشخصية، وما جبل عليه من الصفات العالية، أن يحقق ما عقده عليه الإسماعيلية من آمال بعيدة ، في توطيد دعائم المذهب الإسماعيلي في كثير من أرجاء العالم الإسلامي ، كما استطاع أن يقلق بال الدولة العباسية ويثير مخاوفها ، ويقضى على دولة الأغالبة التي اعتمد عليها العباسيون منذ أيام هارون الرشيد في الوقوف في وجه الأدارسة ، ورد هجماتهم نحو الشرق ، ويقيم في النهاية دولة مهيبة الجانب ، استطاعت أن تقتطع خيرة بلاد الدولة العباسية في المغرب ومصر ، وفى الشام وفلسطين والحجاز واليمن وغيرها، كما عولت على مد نفوذها إلى بغداد حاضرة الدولة العباسية في ذلك الحين . كل ذلك كان راجعا إلى الصفات التي تحلى بها عبيد الله المهدى، والتي كان لها أثر بعيد فيما أحرزه من نجاح.

فقد امتاز المهدى بالصبر . ونستطيع أن ندرك أثر تلك الصفة في موقفه من القرامطة ، فقد رأى انتقاض حمدان قرمط عليه ، وحدة منافسة أبناء "زكرويه ابن مهروبه له". ومع ذلك ظل يصابرهم ، ويعمل في هدوء. على تنظيم جماعته، وعين داعيا لدعاته يحل محل حمدان قرمط ، واتصل بأبناء " ذكرويه "، دون أن يثور عليهم كما ثاروا عليه ، وظل يرقب في ثبات جميع حركاتهم في الشام . فلما أخفق في معالجته الأمور في صبر وروية ، غادر بلاد الشام. وكان لهدوئه أثر عظيم في كل ما ناله من نجاح . فقد عرف عن طريق دعاته المقيمين فى الشام ، أن رسل العباسيين يلاحقونه ؛ ومع ذلك لم يجد الهلع إلى نفسه سبيلا ، بل أخذ ينظم برامج رحلته في هدوء. واطمئنان . وفى مصر عرفه أحد المصريين، وهم بالقبض عليه وإفشاء سره ، ومع ذلك تخلص منه عبيد الله فى الباقة تدل على الذكاء والثبات والصبر . ثم انظره وقد بكى داعيه المقيم بين يديه حين رأى المصاعب تلاحقه من كل جانب ، يهدى من روعه في هدوء.

ومن أهم صفات المهدى الجود ، فكان ينفق عن سمة ، ولم يكن ذلك راجعا إلى حاله ، بل لأنه كان جوادا بطبيعة. وقد استطاع بفضل جهودها وده أن يجذب إليه أهل سلمية وعمالها ، حتى لحجت الألسن بالثناء عليه . ولكن جوده قد أثار الشكوك على ما رأينا ، وانتهى الأمر بخروجه من سلبية . وبفضل جوده سكت عنه محمد ابن سلمان وعيسى التوشرى، واستطاع أن يجذب إليه "اليسع بن مدرار". وهكذا كان جود عبيد الله المهدى من العوامل التي ساعدته على التغلب على الصعاب التي كانت تعترضه. ولا ننسى أنه يفضل جوده وكرمه ، زاد تعلق أتباعه هـ ، وتفانوا في إخلاصهم له ، حتى كان يقرض لحم الواحد منهم ، وتقلع أظفاره، على أن يقر عليه فلا يفعل : وبفضل جوده كان يجد من يعتمد عليه . انظره وقد أصبح رئيس قافلة هرب به طوع بنانه .

وكان عبيد الله فوق ذلك مهيبا ، يفرض احترامه وتقديره على من يراه ، حتى إن علماء الإسماعيلية يرجعون سبب نجاحه في الإفلات من مصر ، إلى هذه المهابة التي ألقى الله بها في قلب عيسى" النوشرى "، كما يقولون : إنه يفضل مهابته لم يلحق به سوء من ناحية "اليسع بن مدرار" . يقول أبو حنيفة النعمان عن عبيد الله في: " له دار أقام بها ، وكل ذلك تلاحظه العيون في طريقه ، وحينها نزل ، وفى أي مدينة دخل ، ويقول كل من رآه ممن له تمييز وبصيرة : والله ما هذا تاجر ، وما هذا إلا سلطان أو ملك من الملوك . وكذلك كان يقول فيه كثير من أهل سجلماسة. وكان مما يدل عليه افضاله على من يحبه أو يأتيه .

أهم النتائج والتوصيات :

١- الدولة الفاطمية في مصر أقامها عبيد الله المهدي بفضل ذكاء سياسي كبير واستغلال لا حداث سياسية واجتماعية في ذلك الوقت .
٢- عند اجتماع السلطة الدينية مع السلطة السياسية يصبح القائد ذا قوة عظيمة ونفوذ يصعب مقاومته .
٣- أن صفات عبيد الله الخلقية كانت لهى الدور الكبير في فرض سطوته على كل منحولة ومريدي .
٤- سوء أوضاع الدولة العباسية وانشغالها في صراعات داخلية، كان من أهم الأسباب الى قيام الدولة الفاطمية .
٥- حسن التنظيم الداخلي ساعد عبيد الله على تحقيق نجاحات كبيرة .
٦- استغلال الحماس الكبير لاتباع الحركة الاسماعلية العسكري والفكري في تحقيق نتائج عظيمة .
٧- اسلوب القيادة غير التقليدي الذي اتبعه عبيد الله ساعد على جلب الحلفاء اليه .

٨- حسن اختيار القادة والدعاة من أهم علامات عبيد الله المهدي البارزة .

٩- الايمان بالعمل والتفاني يذيب المصاعب ويحقق النتائج .

يوصي الباحث بدراسة الدولة الفاطمية ومعرفة أهم اسباب هزيمتها دراسة تحليلية موضوعية

الهوامش:

(١) القرشي، عيون الأخبار، ج٥ ، ص ٥٣ .

(٢) محمود إسماعيل، الخوارج، ص١٦٣.

(٣) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ص ٣٠ .

(٤) الفاطميون في مصر: حسن ابراهيم حسن، ص ٨٠ .

(٥) الدولة العباسية: محمد علي بك، ص ٥٥ .

(٦) الفاطميون في مصر: حسن ابراهيم حسن ، ص ٨١ .

(٧) اتعاظ الحنفا،:المتر يزي ص ٣٨ .

(٨) الكامل : أبن الأثير ، ص ٢٨ .

(٩) بيان المغرب: ابن عذارى ، ج١، ص ١٧٧ .

(١٠) اتعاظ الحنفا : المتريزي ، ص ٤١ .

(١١) البيان المغربي: ابن عذاري ، ج ١، ص ١٨٧ .

(١٢) كشف اسرار الباطنية : الحادي، ص ٣٤ .

(١٣) تاريخ الاسلام : الذهبي، ج٣، ص ٦١ .

(١٤) تاريخ الطبري ، الطبري ، ج٤ ، ص ٥٥ .

(١٥) تاريخ الاسماعيلية السياسي حتى سقوط بغداد : د. طه اشرف ، ج٢ ، ص ٥٠ .

(١٦) كشف اسرار الباطنية : الحادي ، ص ٣٤ .

(١٧) كشف اسرار الباطنية : الحادي ، ص ٣٤ .

(١٨) تاج العقائد ومعدن الفوائد: ابن الوليد ، ص ٤٠ .

(١٩) عقيدة الاسماعيلية : جرير ، ص ١٨٥ .

(٢٠) تاج العقائد ومعدن الفوائد: ابن الوليد ، ص ٤٠ .

(٢١) زهرة المعاني : المنتخب ، ص ٥٩ .

(٢٢) زهرة المعاني : الداعي عماد الدين ادريس، ص ٥٢ .

(٢٣) شرح الاخبار : المنتخب ، ص ٣٢ .

(٢٤) استتار الامام : ص ١٠٥ .

(٢٥) شرح الاخبار : المنتخب ، ص ٢٨ .

(٢٦) المصدر نفسة ، ص ٣٢ .

(٢٧) استتار الامام : ص ١٠٨ .

قائمة المصادر والمراجع :

١- **القران الكريم .**

٢- **ابن الأثير،** علي ابن احمد بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، ج١٢ ، بولاق ١٢٧٤ .

٣- **أماري: ميشيل ،** مكتبة سقلية العربية ، ج٢ ، ١٣٨٧ .

٤- **مرأة الزمان في تاريخ الاعيان،** مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية، رقم ٥٥١ تاريخ .

٥- **كشف اسرار الباطنة وأخبار القرامطة،** ابو القاسم محمد بن حوقل البغدادي، مخطوطة .

٦- **مقدمة أبن خلدون، مصر ١٣١١ هـ .**

٧- **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ،** الدكتور عبد الرزاق باشا، ج٤، ١٩٢٦ .

٨- **صلة تاريخ الطبري ،** ابو الحسن نجم الدين الحكمي ، القاهرة، ١٣٢٦ .

٩- **اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا،** ركن الدين المنصوري، بيت المقدس، ١٩٠٨ .

١٠-**كتاب فرق الشيعة،** النويري احمد بن عبد الوهاب، استنبول ١٩٣١ .

١١_ **رسالة التوحيد،** ابو الحسن علي بن الحسن المسعودي، القاهرة، ١٣٣٤ هـ .

١٢- **الفهرست ،** ابن النديم محمد بن اسحاق، القاهرة، ١٣٤٨هـ .

١٣- **عيون الاخبار وفنون الأثار،** الداعي عماد الدين ادريس بن الحسن، ت ٨٧٢هـ، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، بيروت .

١٤- **الفاطميون في مصر ،** حسن ابراهيم حسن، ط القاهرة، ١٩٣٢ م .

١٥ – **الخوارج،** علي بن محمد الصلابي ، المملكة السعودية، ١٩٧٤ م .

١٦ – **تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام**، الحافظ شمس الدين محمد بن احمد الذهبي، ٦٩٠ هـ، ت الدكتور عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت .

١٧ – **تاريخ الاسماعيلية**، عارف تامر، ج٣، ٢٠٠٧ ، القاهرة ، دار الكتاب العربي .

١٨ – **استتار الامام وسيرة جعفر الحاجب** ، ايفانوف ، مجلة الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٣٦ م ، ج٤ .

١٩ – **شرح الاخبار في فضائل الأئمة الاطهار**، القاضي النعمان بن محمد بن منصور المغربي، ت ٣٦٣ هـ ،ج٦ ، بيروت .